"الشريعة"

باعتبارها أحد عناصر المحور الأول

أ.د / يوسف قاسم

رئيس قسم الشريعة الإسلامية ـ كلية الحقوق ـ جامعة القاهرة

مصـــــــر

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين .

ثم أنه من تمام سعادتى أن تصلنى دعوة كريمة من معالى وزير الأوقاف للمشاركة فى أعمال المؤتمر العام الثانى والعشرين للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، والذى سينعقد بـــإذن الله تعـــالى بمدينة القاهرة برعاية السيد رئيس الجمهورية تحت عنوان "مقاصد الشريعة الإســـلامية وقضــــايا العصر". وذاك مبحث مطلوب عن موضوع "الشريعة" باعتباره أحد عناصر المحور الأول.

وهذه الكلمة "الشريعة" على صغر حجمها المادى تكاد تزن الجبال فى مضمونها المعنوى.

ولذلك سأحاول الاختصار فى عرض مضمونها بالقدر الملائم لظروف هذا المؤتمر الأمر الذى دعانى إلى عرض الموضوع فى مبحثين هما:

المبحث الأول: معنى الشريعة لغة وشرعًا.

المبحث الثانى: العلاقة بين الشريعة وبين غيرها من المصطلحات المماثلة والمشابهة لهـــا مثل الدين والفقه.

المبحث الأول
فى الشريـــعة

الشريعة هى كل شىء بالنسبة للحياة الهادئة الآمنة المطمئنة فلا ينبغى أن تكون عنوانًا لمبحث محدود ولكن مقصودنا من هذا المبحث مجرد شرح لبعض المفاهيم اللغوية والشرعية. حيث نتكلم هنا عن معنى الشريعة فى لغة العرب ثم عن معناها فى اصطلاح العلماء.

أولاً: الشريعة فى اللغة:

كلمة شرعة فى أصل معناها اللغوى ترجـــع إلـــى مـــا كـــان يعـــرف عنـــد العـــرب مـــن

الطريق الواضح المؤدى إلى الماء. ففى المصباح المنير شرع مأخوذ من الشريعة، وهى مورد الناس للاستقاء. سميت بذلك لوضوحها وظهورها وجمعها شرائع(١). وفى لسان العرب: "الشريعة والشراع والشرعة المواضع التى ينحدر إلى الماء منها. والعرب لا تسميها شريعة حتى يكون الماء عدا(٢) ـ أى كثيرًا ـ لا انقطاع له. وفى المثل أهون السقى التشريع(٣) .

ثانيًا الشريعة فى الاصطلاح:

أما الشريعة بمعناها الإصطلاحى فهى ما شرعه الله تعالى لعباده من الأحكام التى جاء بها نبى من الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ سواء كانت بكيفية العمل أو بكيفية الاعتقاد(٤) .

وهكذا يمكن القول بأن الشريعة الإسلامية هى: ما نزل به الوحى على سيدنا محمد ﷺ من الأحكام التى تصلح أحوال الناس فى دنياهم وآخرتهم سواء فى ذلك أحكام العقيدة والعبادة أو الأخلاق.

قال الله تعالى: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ (الشورى: ١٣) يربط المفسرون ـ عادة ـ بين الآية وبين ما قبلها ـ ولذلك فإنهم هنا يقولون: قوله تعالى: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ ﴾ أى: الذى له مقاليد السموات والأرض شرع لكم من الدين ما شرع لقوم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى. ثم بين ذلك بقوله سبحانه: ﴿ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ ﴾ (الشورى: ١٣) وهو توحيد الله وطاعته والإيمان برسله وكتبه وبيوم الجزاء وبسائر ما يكون الرجل بإقامته مسلمًا.. ولم يزل ذلك يتأكد بالرسل ويتناصر بالأنبياء ـ صلوات الله عليهم واحدًا بعد واحد، وشريعة أثر شريعة، حتى ختمها الله بخير الملل ملتنا على لسان أكرم الرسل نبينا محمد ﷺ، فكان المعنى أوصيناك يا محمد ونوحًا دينًا واحدًا يعنى فى الأصول التى لا تختلف فيها الشريعة، وهى التوحيد والصلاة والزكاة والصيام والحج، والتقرب إلى الله بصالح الأعمال والزلف إليه بما يرد القلب والجارحة إليه، والصدق والوفاء بالعهد وأداء الأمانة وصلة الرحم وتحريم الكفر والقتل والزنا والإذاية للخلق كيفما تصرف والاعتداء على الحيوان كيفما دار واقتحام الدناءات وما يعود بقلة المروءات. فهذا كله ـ منصوص عليه ـ دينًا واحدًا وملة واحدة متحدة لم تختلف على ألسنة

الأنبياء وأن اختلفت أعدادهم وذلك قوله تعالى: ﴿ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ﴾ (الشورى: ١٣) أى اجعلوه قائمًا دائمًا مستمرًا محفوظًا مستقرًا من غير خلاف فيه ولا اضطراب. (تفسير الإمام القرطبى، ص٥٩٣١ طبعة الشعب). وقال سبحانه وتعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الجاثية: ١٨) (٥) .. وقال جل شأنه: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ (المائدة: ٤٨) (٦) .

ومن هذا يظهر أن الشريعة هى مجموعة أحكام الدين. وقد سمى الله تعالى هذا الدين شريعة وشرعة. كما هو ظاهر من هذه الآيات البينات.

العلاقة بين المعنيين:

ومما ينبغى التنويه به الارتباط القائم بين المعنى اللغوى والمعنى الاصطلاحى لكلمة "شريعة".

فالمعنى اللغوى ـ كما سبق البيان ـ مورد الناس للاستقاء(٧) ، ولا يخفى على كل ذى لب حاجة الناس إلى هذا المورد فإنهم لو انقطعوا عنه لهلكوا، إذ كيف تستمر حياتهم بدون الماء؟

وكذلك الحال بالنسبة للشريعة التى تنظم حياة الناس حتى لا يضلوا ولا يعيشوا فى حياة فوضوية، فإن حياة بلا شريعة أن هى إلا حياة للوحوش يستبد فيها القوى بالضعيف.

وعلى هذه فالشريعة بالنسبة للعقول والأرواح هى كالماء تمامًا بالنسبة للأجساد، كما هو المفهوم من الصلة بين مورد الناس للاستقاء وبين الأحكام التى تنظم حياتهم. وأن القارئ الكريم ليدرك هذه الصلة التى أوضحناها ـ كما بدا لنا ـ من كتاب الله العزيز حيث يقول الله جل ثناؤه فى وصف الماء وأثره: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾ (ق: ٩ـ١١) (٨) .

هكذا أثر الماء فى حياة الأجساد، وما يلزم لها من وسائل الحياة من الفاكهة والحبوب والثمرات، فضلاً عن حاجة الجسد إلى الماء بذاته، وإلا لهلك من شدة العطش، مما يدل قطعًا ـ وهذا شاهد محسوس ـ على أنه لا حياة لأى كائن بدون الماء.

ومن ناحية أخرى يقول الله عز وجل فى وصف القرآن العظيم: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (الأنعام: ١٥٥) ويقول جلّ جلاله: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (ص: ٢٩) [٩] .

فانظر إلى بيان الله تعالى وحكمته، وكيف وصف الله الماء بأنه مبارك لأنه سبب لحياة الأجساد؛ كما وصف الكتاب العزيز بأنه مبارك لأنه سبب لحياة الأرواح ونور للقلوب وأساس للحياة الكريمة فى الدنيا والسعادة الباقية فى الأخرى .

وهكذا فإن حاجة الناس إلى الشريعة كحاجتهم إلى الماء الذى لا يمكن الاستغناء عنه بحال.

وغنى عن البيان ــ كما هو ظاهر مما تقدم ــ أنه يراد بالشريعة كل ما شرعه الله للناس، سواء أكان بالقرآن الكريم أم بسنة رسول الله ﷺ من قول أو فعل أو تقرير، لأن ذلك راجع إلى الوحى.

فالشريعة على هذا تشمل أصول الدين ــ أى ما يتعلق بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. وغير ذلك من بحوث علم التوحيد. كما تشمل القواعد المؤدية إلى تهذيب النفوس، وما إلى ذلك مما يتضمن علم الأخلاق فضلاً عما هو معروف من شمول الشريعة للأحكام المتعلقة بأفعال المكلفين، من وجوب وحرمة وكراهة وندب وإباحة[١٠] .

المبحث الثانى

فى الشريعة والدين والفقه

عندما تذكر كلمة الشريعة ينصرف الذهن مباشرة إلى الدين عقيدة ودراسة ومنهجًا فالارتباط بينهما ارتباط أصيل لا يكاد الذهن يفصل بينهما.

ونظرًا لهذا الارتباط فلابد أن نتعرض لبيان المقصود من الدين لغة واصطلاحًا. ثم بيان الصلة بينه وبين الشريعة، ثم نتكلم بعد ذلك عن المقصود من الفقه لغة وشرعًا. وما طرأ على هذا المعنى من تطور وتخصيص، مع بيان العلاقة بين الشريعة الإسلامية والفقه الإسلامى. فى مطلبين على التوالى:

المطلب الأول

فى الدين

تتوارد هذه الكلمة على الألسنة كثيرًا. ويكاد الكافة يجمعون على استعمالها لبيان علاقة الإنسان بالله الذى خلقه وسواه.

ومع ذلك فإن للدين معانى كثيرة وردت فى لغة العرب. ولهذا فإننا نبدأ بالكلام عن الدين فى لغة العرب ثم عنه فى الاصطلاح الشرعى(١١) .

الدين فى لغة العرب:

الدين(١٢) فى لغة العرب يطلق على معان كثيرة منها:

أ ــ الطاعة والخضوع: يقال دنت لله تعالى بمعنى أطعته وخضعت له. ويقال دان ديانة فهو دين ومتدين. والدين لله من هذا إنما هو طاعته والتعبد له عز وجل(١٣). ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: **[الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى].** أى أن العبد الذى يستحق المدح والثناء هو من أخضع نفسه لله تعالى فسلك بها مسالك التهذيب والتقويم بحيث تكون نفسه خاضعة لتعاليم الله رب العالمين. وعكس ذلك هو الأحمق الذى يتبع هوى نفسه فيوردها موارد الهلاك ثم يقذف به فى النار.

ب ــ الجزاء والحساب: ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ (الفاتحة: ٤) (١٤) . أى يوم حساب الخلائق. وهو يوم القيامة. يدينهم الله بأعمالهم أن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر. إلا من عفا عنه(١٥) .

ج ــ العادة والشأن: يطلق الدين فى اللغة العربية أيضًا على ما يتعود عليه الإنسان، تقول العرب: ذلك دينى وديدنى، أى عادتى وشأنى(١٦) .

وهنالك معان لغوية كثيرة أخرى تكلم عنها علماء اللغة ورأينا الاكتفاء منها بهذا القدر(١٧) .

الدين فى الاصطلاح الشرعى:

يمكننا أن نعرف الدين فى الاصطلاح الشرعى بأنه: "النظام الإلهى الذى يسلك بمن اتبعه سبيل الاستقامة والصلاح فى الدنيا، والنجاة والفلاح فى الآخرة".

وهذا التعريف استفدناه من مجموع ما قاله العلماء مثل قول بعضهم: "الدين هو وضع إلهى سائق لذوى العقول باختيارهم إياه إلى الصالح فى الحال والفلاح فى المال"(١٨).

المطلب الثانى

فى الفقه

كلمة فقه لها مدلول فى لغة العرب لابد من التنبيه إليه، ولها مدلول فى الاصطلاح يتحتم علينا بيانه.

الفقه فى اللغة:

يقول علماء اللغة: الفقه هو العلم بالشىء والفهم له(١٩) . ففى القاموس والمصباح وغيرهما: الفقه فهم الشىء. وقال بعض اللغويين(٢٠) . كل علم لشىء فهو فقه(٢١) ، وعلى ذلك فالفقه ــ لغة ــ هو الفهم لكل أمر ظاهر أو خفى؛ سواء أكان قولاً أم غير قول: فمن الأول قول الله سبحانه: ﴿ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ﴾ (هود: ٩١) ومن الثانى قول الله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ (الأنعام: ٦٥) .

الفقه فى الاصطلاح:

فى صدر الإسلام كان يراد من لفظة "فقه" العلم بجميع أحكام الدين، بمعنى أنه قد غلب فى هذا العصر استعمال الفقه فى فهم أحكام الدين جميعًا.

فهو إذن كان يطلق على فهم كل ما شرع الله لعباده من الأحكام سواء أكانت متعلقة بالإيمان والعقائد وما يتصل بها أم كانت متعلقة بأحكام الفروض والحدود والأوامر والنواهى، أم كانت متصلة بالأخلاق والمثل العليا.

على أن الإمام الغزالى(٢٢) رحمه الله يقول فى كتاب إحياء علوم الدين: "ولقد كان اسم الفقه فى العصر الأول مطلقاً على علم طريق الآخر ومعرفة دقائق آفات النفوس ومفسدات الأعمال. وهو الإحاطة بحقارة الدنيا(٢٣)، وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة، واستيلاء الخوف على القلب(٢٤) ، ويدلك عليه قوله عز وجل: ﴿ ... لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (التوبة: ١٢٢) ، فذلك لا يحصل به إنذار ولا تخويف، بل التجرد له على الدوام يقسى القلب وينزع الخشية منه كما نشاهد الآن من المتجردين له(٢٥). قال تعالى ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ (الأعراف: ١٧٩)

وأراد به معانى الإيمان دون الفتاوى. وقال صلى الله عليه وسلم: **[ألا أنبئكم بالفقيه كل الفقيه؟ قالوا بلى يا رسول الله، قال: "من لم يقنط الناس من رحمة الله. ولم يؤمنهم مكر الله ولم يؤيسهم من روح الله، ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى ما سواه]** (٢٦) .

ثم يقول الإمام أبو حامد بعد ذلك: "ولست أقول أن اسم الفقه لم يكن متناولاً للفتاوى فى الأحكام الظاهرة ولكن بطريق العموم والشمول. أو بطريق الاستتباع فكان إطلاقهم على الآخرة أكثر(٢٧) .

ومن هذا يظهر أن الإمام الغزالى لم يخالف جمهور السلف حين أطلقوا الفقه على العلم بجميع أحكام الدين. غير أنه رحمه الله كان يرى أن الأصل فى علم الفقه ــ كما كان فى الصدر الأول ــ هو علم الآخرة الذى يقرب العبد من ربه، ويورثه خشية الله فى قلبه، ومراقبته لخالقه عز وجل؛ تجعله زاهدًا فى الدنيا، راغبًا فى الآخرة.

أما العلم بأحكام المعاملات ونحوها من بيع وإجارة وغير ذلك من الأحكام الفرعية فكان اسم "الفقه" يشملها ولكن بطريق التبع لا بطريق الأصل(٢٨) .

وقد استمر هذا الاستعمال الجامع أمدًا طويلاً إلى أن دخل عليه التخصيص. فالدراسات المتعلقة بذات الله سبحانه وتعالى وملائكته وكتبه ورسله والدار الآخرة سميت باسم علم التوحيد، كما أن الدراسات المتعلقة بتهذيب النفوس سميت بعلم الأخلاق. وصار علم الفقه مقصورًا على البحث فى الأحكام الشرعية العملية.

الهوامش:

(١) المصباح المنير: الشين مع الراء وما يثلثهما .

(٢) بكسر العين وتشديد الدال .

(٣) لسان العرب: العين مع الدال. ومعنى المثل أن أسهل طريق لسقى الإبل هو تركها تسير فى الطريق المؤدى إلى الماء لتشرب بنفسها وترتوى .

(٤) كشاف اصطلاحات الفنون الذى هو بالعلوم مشحون، ج١، ص٨٣٥ـ٨٣٦ طبعة سنة ١٣١٧هـ .

(٥) أى جعلناك على منهاج واضح من أمر الدين. يشرع بك إلى الحق قال ابن عباس "على شريعة" أى على هدى من الأمر (المرجع السابق، ص٥٩٨٣) والآية فى سورة الجاثية ورقمها ١٨ .

(٦) الشرعة هى الشريعة وهى الطريقة الظاهرة التى يتوسل بها إلى الحياة كما سبق البيان .

(٧) حيث قال العلماء سمى بذلك لوضوحه وظهوره إذا من المعانى اللغوية أيضًا لكلمة شريعة أظهر وبين، ففى المصباح شرع الله لنا كذا أظهره وأوضحه وتأتى بمعنى سن ففى المختار شرع لهم أى سن لهم. وهى كذلك فضلاً عما بينا لا تخرج عن هذا المعنى اللغوى فتأتى بمعنى أنشأ الحكم، يقال شرع الله الأحكام أى سنها وأنشأها. ويمكن أن تفهم كذلك على أنه أظهرها وبينها باعتبار أن هذه الأحكام من صفات الكمال وهى ثابتة فى علم الله قبل وجودنا فكان إنشاؤها بالنسبة لنا هو فى الواقع أظهار بيان لما هو كائن فى حقيقة الأمر.. وعلى هذا يقال شرع شرعًا فالشرع إذن هو إنشاء الأحكام وتبيانها. وكذلك شرع ـ بتشديد الراءـ فيقال شرع الأحكام تشريعًا. فالشرع والتشريع بمعنى واحد وقد يطلقان بمعنى الشريعة إطلاقًا مجازيًا .

(٨) والمراد من حب الحصيد: كل ما يحصد. والباسقات: الطوال. والطلع هو أول ما يخرج من ثمر النخيل ونضيد بمعنى متراكب قد نضد بعضه على بعض (تفسير القرطبى: ص٦١٧٦ـ ٦١٧٧) .

(٩) والآية المباركة مع سابقتيها تعقيبًا على اختيار الله تعالى لنبيه داود عليه السلام فقد أتاه الله الخلافة والنبوة والرسالة وأمره أن يحكم بين الناس بالحق وحذره من اتباع الهوى. وفى هذا يقول بعض المفسرين: (أن شريعة الله للناس طرف من ناموسه فى خلق الكون وأن كتابه المنزل بيان للحق الذى يقوم عليه الناموس. وأن العدل الذى يطالب به الخلفاء فى الأرض والحكام بين الناس إنما هو طرف من الحق الكلى لا يستقيم أمر الناس إلا حين يتناسق مع بقية الأطراف. وأن الانحراف عن شريعة الله والحق فى الخلافة والعدل فى الحكم، إنما هو انحراف عن الناموس الكونى الذى قامت عليه السماء والأرض وهو أمر عظيم إذن، وشر كبير، واصطلاح مع القوى الكونية الهائلة، لابد أن يتحطم فى النهاية ويزهق. فما يمكن أن يصمد ظالم باغ منحرف عن سنة الله وناموس الكون وطبيعة الوجود. وما يمكن أن يصمد بقوته الهزيلة الضئيلة لتلك القوى الساحقة الهائلة، وهذا ما ينبغى أن يتدبره المتدبرون (الظلال ، ج٥، ص٣٠١٩) .

(١٠) المرحوم الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى: الأموال ونظيرة العقود فى الفقه الإسلامى مع مدخل لدراسة الفقه وفلسفته، ص١٠، طبعة ١٩٧٢هـ ـ ١٩٥٢م .

(١١) يقصد بالاصطلاح الشرعى المعنى الذى اصطلح علماء الشريعة عليه.

(١٢) الدين بكسر الدال بعدها ياء ساكنة مخففة.. أما إذا فتحت الدال فإن المعنى يتغير تمامًا. فالدين بفتح الدال هو

ما على الشخص من حقوق للآخرين. يقال : دان واستدان وآدان، إذا أخذ الدين واقترض. فإذا أعطى الدين قيل أدان مخففًا،(لسان العرب الدال مع الياء ــ المصباح المنير: الدال معه الياء وما يثلثهما) .

(١٣) لسان العرب الدال مع الياء وقد جاء بهذه المناسبة فى هذا الموضع أن بعض علماء اللغة يقول فى معنى "آدان نفسه". حاسبها. والديان اسم من أسماء الله عز وجل ــ معناه الحكم القاضى والديان القهار. وقيل الحاكم والقاضى وهو من دان الناس بمعنى قهرهم على الطاعة.

(١٤) الآية المباركة من سورة الفاتحة المعروفة. وتقرأ ﴿مالك يوم الدين﴾، وملك يوم الدين والمعنى أن الله تبارك وتعالى هو وحده دون سواه المتصرف فى هذا اليوم. ولما كان الله جل علاه هو المالك ليوم الدين فإنه بالضرورة مالك لما سواه من الأيام والأوقات واللحظات فهو خالقها وموجدها والمتصرف فيها. وإذا كنا نشاهد فى هذه الدنيا ملكًا للأفراد فإنه ــ على التحقيق ــ ملك مجازى، أو ملك ظاهرى بدليل مادى محسوس وهو أن أى إنسان مهما كان سيترك كل ما فى حوزته عند لقاء ربه. فالملكية الحقيقية إذن هى لله عز وجل . وأما الإنسان فإن ملكيته مجازية بمعنى أن الله تعالى قد استخلفه فى هذا المال، فإن أحسن أحسن الله إليه وإن أساء حاسبه حسابًا عسيرًا .

(راجع فى شرح هذا المعنى بالتفصيل كتابنا: التعامل التجارى فى ميزان الشريعة ، ص١٣ــ١٧، طبعة ١٤٢٠هــ).

(١٥) تفسير ابن كثير ،ج١، ص٢٤ــ٢٥. وقد جاء فى هذا الموضوع أن تخصيص الملك بيوم الدين لا ينفيه عما عداه لأنه تقدم الأخبار بأنه رب العالمين، وذلك عام فى الدنيا والآخرة وإنما أضيف إلى يوم الدين لأنه لا يدعى أحد هنالك شيئًا ولا يتكلم أحد إلا بإذنه.

كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ (النبأ: ٣٨).

وقال تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ (طه: ١٠٨).

(١٦) لسان العرب الدال مع الياء.

(١٧) جاء فى كشاف اصطلاحات الفنون: الدين بالكسر والسكون فى اللغة يطلق على العادة والسيرة والحساب والقهر والقضاء والحكم والطاعة والجزاء. ومنه: ﴿مالك يوم الدين﴾. وكما تدين تدان. والسياسة والرأى. ودان إذا عصى وأطاع، وذل وعز، فهو من الأضداد .، ج١، ص٥٠٣. طبعة كلكتا سنة ١٨٦٢م.

(١٨) كشاف اصطلاحات الفنون،ج١، ص٥٠٣. وقد جاء فى الموضع أن التعريف المذكور يشمل العقائد والأعمال. ويطلق على كل ملة ويضاف إلى الله تعالى لصدوره عنه وإلى النبى ﷺ لظهوره منه وإلى الأمة لتدينهم وانقيادهم، فيقال "دين الله أو دين محمد عليه الصلاة والسلام، أو دين المسلمين، أو أمة الإسلام" .

ــ ومعنى التعريف الوارد فى المتن أن الدين أحكام الهبة وضعها الله تعالى وقررها تسوق أصحاب العقول ــ الذين يختارون العمل بها ــ إلى ما يصلح أحوالهم فى الدنيا وإلى فلاحهم فى الآخرة.

(١٩) القاموس المحيط الفاء مع القاف ــ وفى مختار الصحاح: الفقه هو الفهم .

(٢٠) القائل هو ابن فارسى. وهو أحمد بن فارس بن زكريا القزوينى الرازى من أئمة اللغة والآداب أصله من قزوين وإليها ينسب. وله تأليف كثير منها المجمل فى اللغة .

(٢١) المصباح المنير ــ الفاء مع الفاء .

(٢٢) هو الفيلسوف الفقيه الأصولى أبو حامد محمد الغزالى الشافعى. ولد فى مدينة طوس من أعمال خراسان وتوفى بها، تجول فى طلب العلوم الشرعية والعقلية حتى نبغ فيها ثم أثر التصوف وغلب عليه. له أكثر من مائتى كتاب ومقالة ورسالة توفى سنة ٥٠٥هــ .

(٢٣) وليس المراد من حقارة الدنيا ترك العمل فيها بل المؤمن الحقيقى هو من يعمل لدنياه وآخرته بجد ونشاط وهو يوقن أن الدنيا زائلة وإنما يعمل فيها ليكسب حلالاً ولينفق من رزق حلال وليترك ورثته أغنياء خير من أن يتركهم عالة يتكففون الناس . فيكون بذلك إنسانًا نافعًا لنفسه وأهله ومجتمعه .

(٢٤) أى الخوف من الله عز وجل. ومن خاف من الله وحده أمن ممن سواه .

(٢٥) يقصد المشتغلين بدراسة الفقه دون أن يلتزموا هم أنفسهم بمراقبة الله وخشيته والتزام حدوده. أى التجرد لأحكام المعاملات والطلاق واللعان ونحوها هى التى تنشىء هذا الأثر .

(٢٦) أخرجه أبو بكر بن بلال فى مكارم الأخلاق، وأبو بكر بن السنى، وابن عبد البر من حديث على كرم الله وجهه، وقال ابن عبد البر أكثرهم يوقفونه على علىّ (راجع تخريج الحافظ العراقى هامش إحياء علوم الدين، ج١، ص٥٤ طبعة الشعب) .

(٢٧) إحياء علوم الدين، ج١، ص٥٤ــ٥٥. طبعة الشعب .

(٢٨) ولعل ما قاله الإمام مالك فى تعريف الفقه يؤيد الغزالى فيما ذهب إليه، إذ يقول ــ إمام دار الهجرة رحمه الله: الفقه نور يقذفه الله فى القلب، بل إن الإمام أبا حنيفة النعمان يميل إلى تغليب علم الآخرة على الدنيا حيث ألف كتابًا فى العقائد اسماه: "الفقه الأعظم" .

ــ وإذا كان اسم الفقه يطلق على فهم جميع الأحكام المتعلقة بأحوال الآخرة وتلك التى تتعلق بالدنيا فإنه يطلق أيضًا على الأحكام ذاتها ومن ذلك قول رسول الله ﷺ : **[رب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه]**.